كلمة الوزارة

٥

سؤال البدهيات عند العرب

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

بات كثير مما نظن أنه من البديهيات والمسلمات يحتاج إلى فحص وإعادة نظر وتقييم، ويبدو السؤال عما يريده العرب في حاضرهم ومستقبلهم وسط هذا الطوفان من المتغيرات الدولية الكبرى، اقتحاماً لبديهيات تحتاج إلى هزة نوعية للتأكد من صلاحيتها وقدرتها على الاستمرار؛ فما يحدث في أرضنا العربية اليوم مذهل ومدهش، ويدعونا إلى تأمل عميق لخطر المحنة التي تعيشها الأمة في تحولات لم يكن ممكناً

تصـورها قبـل عقود، وأحسـب أن هـذه المـرة الأولى التي تختل فيهـا القيم على هـذا النحـو المثير الذي نراه مـن انقلاب دراماتيكـي في المفاهيـم والثوابت، لقد دبت الفوضـى والفتنـة في الحياة العربية حتى بات بعض المثقفين والسياسـيين (ولا أقـول العامـة)، يحتاجـون إلى مـن يقنعهم بـأن إسرائيل هـي الخطر الذي يهـدد مسـتقبل الأمة، وأن سياسـة الولايات المتحدة وحلفائها هـي التي أحدثت الانهيارات المتلاحقة التي حلت بنا، بل بات بعضـهم يحتاج إلى من يقنعه بأننا أمـة! ولقـد قرأت مقالة لإحـدى الكاتبات المثقفات تناقش فيهـا ما حل بالعراق ولبنان وفلسطين من كوارث وتبحث لاهثة عمن يحمل الوزر، وقد قادتها الحنكة والتحليلات السياسية البارعة إلى تحميل المسؤولية لعدة جهات عربية وإقليمية، وكان العجـب العجـاب ألا يثـور عندها أي شـك على الإطلاق بدور أو مسـؤولية لإسرائيـل، كأن الـذي يحـدث لا يعنـي إسرائيـل في شـيء. وهـذه الكاتبة ليسـت حالـة فريـدة، فقد بتنا نقرأ كل يوم من الآراء والتحليلات ما يدعو إلى الدهشـة والاسـتغراب، وبعضـه يحمـل توقيع أسـماء كنا نكـن لها احتراماً، قبـل أن تظهر مواقفها الجديدة الغريبة، فبعضهم ينكر انتماءه للعروبة، وآخر يود التنصل من الإسلام، وثالث يريد إقناعنا بأن الخلاص الوحيد هو الاستسلام لإرادة الولايات المتحـدة لأنهـا هي التي تحمـل لنا فكـر الديمقراطية، وهي التي سـتحررنا من تاريخ الجهل والتخلف، وهي التي سـتحرر نسـاءنا من ظلمنا لهن.. وسـوى ذلك كثـير ممـا يدعونـا إلى الإحسـاس بضرورة فحص مـا كان بديهيـاً ولا يحتاج إلى برهـان. وآية هذا الانقلاب المريع في المفاهيم، أننا بتنا نحتاج إلى إقناع بعضـهم بأن المقاومة ليست عدواً للأمة، بل هي الدليل الوحيد على أن الأمة ماتزال حية وفيها شـيء من المروءة والنخوة والكرامة، لكن هذه المصـطلحات التي لم يفهمها ساسـة البيت الأبيض، باتت عصـية على الفهم عند بعض المثقفين العرب الذين يعتـبرون المقاومـة عبئـاً عليهم ويـرون من يؤمن بها رومانسـيين يعيشـون خارج عصرهم، وهؤلاء ينتظرون القضـاء على المقاومة بأيدي العرب أنفسـهم بعد أن

عجـزت إسرائيـل والولايـات المتحدة عن تحقيـق الهدف، ولم يكن أحـد في الأمة يجـرؤ علـى أن يفكر بموقف معـاد للمقاومة على مدى سـنوات القرن العشرين، فحين انطلقت الثورة الفلسـطينيةً كان العرب جميعاً يمجدون الفدائيين، وكان الإسرائيليـون يسـمونهم المخربين، لكن الكوفية الفلسـطينية انتشـرت في العالم كله، وباتت رمزاً لنضـال الشـعوب. وحـين حوصرت الثورة الفلسـطينية تعاطف معهـا العـرب جميعـاً، وما كان أحد يتصـور أن يأتي يوم يصـبح فيـه الفدائيون إرهابيين في نظر بعض أشقائهم، وأخطر من هذا الانقلاب في المفاهيم أن يدافع عربـي عـن إسرائيل وأن يعلـن مودته لها، وهو يرى اسـتعدادها اليومي لمواصـلة الحرب ضد فلسطين ولبنان وسورية، ويرى يدها التي تقطر منها دماء العراقيين عـبر العمليـات الإرهابية الإجرامية التي يقوم بها أنصـار إسرائيل ومن ترسـلهم ليفجـروا في المسـاجد والأسـواق، بهدف إشـعال فتيل الحرب الأهليـة، تماماً كما تفعل في لبنان حين يرتكب أنصارها الجريمة تلو الجريمة، ويطلع بعض المحللين المثقفـين الجاهزين ليتهموا سـورية على الفور، والمفارقة أن بعضـهم بات يطلق الكذبة ويصـدقها. هذه الحالة الفجائعية التي تعيشـها الأمة التي باتت مهددة بحـروب أهليـة مدمـرة في بعض بلدانها، تدعـو إلى إعادة النظر بمـا نظنه من المسـلمات كي نجد المشـترك بيننا والمفترق، مثل معرفة الصديق من العدو، ويبدو السـؤال الـذي بات جديراً أن يطـرح الآن: هل فقد العرب قناعتهـم بأن المقاومة هـي السـند الوحيـد لهم حـين تنهمر على رؤوسـهم صـواريخ الاحتـلال، وتهدم بيوتهـم دباباتـه، وتقتل أطفالهم قنابله ورشاشـاته؟ ماذا بوسـعهم أن يفعلوا إذا انتهت المقاومة، أهم يطمئنون إلى أن الولايات المتحدة سـتحميهم من إسرائيل؟ أم يظنـون أن إسرائيـل سـتحول بلادهـم إلى جنات عدن بمجـرد أن يعلنوا نهاية المقاومـة؟ لقـد بدأ بعض العرب يعلن أن المقاومة عبء على مسـيرة السـلام، وأن الحـل هو الإذعـان لمطلب إسرائيل في تصـفية المقاومـة اللبنانية والفلسـطينية والعراقية، حسـناً من يضـمن أن إسرائيل لن تدوس على الرقاب وتركل الجثث في

مـدن العرب إذا هـم باتوا عاجزين عن مقاومة عدوانها؟ لا أحد يملك أن يعطي هذه الضمانة، ولم يحدث في التاريخ الإنساني كله أن تحررت أمة من الاحتلال أو قبل محتلوها الخروج منها والقبول بالسـلام معها دون أن ترهق المحتل مقاومة تجبره على التراجع عن مآربه وأهدافه. وسيبدو سؤال البديهية الثاني أشد مرارة إذا مـا تسـاءلنا عن الهوية والانتماء؛ أما يزال العـرب يؤمنون بأنهم أمة واحدة، أم أن الشـعور القطـري بـات غالبـاً في دعوته كل قطـر أن يجد خلاصـة الفردي لنفسـه. واضـح أن من يريدون التفلت من هذا الانتماء القومي هم من شـعروا بالضـعف والعجز عن حماية انتمائهم، وباتوا يشـعرون أنه صار عبئاً ومسؤولية يضـيقون بها، لذلك نجد بعضـهم يبحث عن انتماءات جديدة غير مكلفة إن لم تكن رابحة. إن قراءة الأحداث اليومية تشـير إلى أن بعض العرب باتوا يسـتدعون أعداء أمتهم إليهم، ويأتمرون بأمرهم، بل إن بعضهم يرهن مستقبله بهم، وهذا ما يدعونا إلى فحص بديهية الحرص على التمسك بالسيادة والاستقلال، حيث يبـدو أن مفاهيـم كهذه باتت عرضـة للانقلاب أيضـاً، حين نجد قـرارات وطنية مصريـة يتخذهـا سـفراء دول كبرى، أو وزراء خارجيتها أو دفاعهـا! إنني أدرك أن الحالة المفجعة التي تعيشـها الأمة العربية اليوم هي حالة مؤقتة، ولن يسـتمر طويلاً هذا الانقلاب المريع في المفاهيم، فلا يصح إلا الصحيح أما الزبد فيذهب جفاءً، ولكن الآثار الكارثية لما يحدث سـتدخل الأمة في نفق مظلم، ولقد تنادى العـرب إلى توافـق في الـرأي والحلول في قمة الرياض الأخـيرة، لكن أعداء الأمة يخترعـون لهـا بعـد كل تفاهم ما يجعل التضـامن العربي يواجـه أزمة جديدة. ولقـد بات المواطن العربي يشـعر بالقلق والخطر وهو يرى محاولات جادة لإبادة روح المقاومة، ونشر ثقافة الهزيمة والإذعان والاستسـلام، ولم يعد يدري ما تخبئ لـه الأيـام؛ فقد يسـتيقظ على غـزو جديد يتيـح لإسرائيـل أن تحسّـن موقعها التفاوضي إن هي قبلت فيما بعد الانهيار أن تعقد سلاماً مع العرب، أو أنه مقبل على انتشـار مريع لفوضـى هدامة لا تترك له فرصـة لتنفس الحياة، كما يحدث اليـوم في العـراق حيـث تطالعنـا الأخبار في كل سـاعة بمقتل العشـرات وانفجار العربات والسيارات المفخخة.